المحكم والمتشابه في أهم الحواشي على التفاسير المشهورة

الطالب الباحث: مولاي عمر عمري علوي
جامعة محمد الخامس بالرباط – كلية الآداب والعلوم الإنسانية
تكوين الدكتوراه: الدراسات الإسلامية وقضايا المجتمع المعاصر في العالم المتوسطي
مختبر البحث: دراسات في قضايا العلوم والمجتمع
المغرب

مقدمة:

اشتملت الآية السابعة من سورة آل عمران على عتيق الحروف، وجليل المفردات، وجزيل المعاني، وحبيك الفواصل، التي شغلت موائد الفكر، وأسالت مداد الأقلام، وملأت طيات الصحف، وأثْرَت رفوف المكتبات، وأخذ مفهوما المحكم والمتشابه منها نصيبا موفورا، حيث انبنت عليهما كثير من الاختيارات المذهبية والعقدية، والقناعات الفكرية، والتوجهات السياسية. وكان لهما الأثر الكبير على مسار الفكر والثقافة الإسلامية. وكان من بين التصانيف التي اهتمت بدراستهما، وتحرير مفهومهما، كتب الحواشي على التفاسير، ومن أهم تلك الحواشي حاشية الشيخ محيي الدين شيخ زاده[1] على تفسير الإمام البيضاوي[2]، التي تعد من أفضل الحواشي التي كتبت على هذا التفسير المتميز، الذي كان مقررا دراسيا بالمدارس العثمانية لما كانت الدولة العثمانية قائمة وفي أوج حكمها، وقد بلغ عدد الحواشي التي كتبت عليه أزيد من ثلاثمائة حاشية. وحاشية الطيبي[3] على تفسير الكشاف[4] والتي سماها فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، وهي كذلك من أهم وأفضل الحواشي التي كتبت على هذا التفسير من بين أكثر من ثلاثين حاشية، بذل فيها صاحبها جهدا كبيرا لتنقية تفسير

[1] – الشيخ زاده هو محيي الدين محمد بن الشيخ العارف بالله، الشيخ مصلح الدين مصطفى القوجوي (ت 951هـ) كان مدرسا بالقسطنطينية، من علماء الدولة العثمانية، ينظر كشف الظنون لحاجي خليفة ج1 ص 188.

[2] – الإمام البيضاوي هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، أبو سعيد، أو أبو الخير، ناصر الدين البيضاوي: قاض، مفسر، علامة. ولد في المدينة البيضاء (بفارس قرب شيراز) وولي قضاء شيراز مدة. وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز وتوفي فيها " سنة 685هـ. ينظر الأعلام للزركيلي ج 4 ص 110.

[3] – الطيبي هو: الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطيبي: من علماء الحديث والتفسير والبيان. من أهل توريز، من عراق العجم. ينظر الأعلام للزركلي ج 2 ص 256.

[4] – الزمخشري صاحب الكشاف هو: محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشريّ، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين، والتفسير، واللغة، والآداب. ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله. وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفي فيها سنة 538هـ. ينظر الأعلام للزركيلي ج7 ص 178.

الكشاف من الأفكار الاعتزالية. وحاشية الجمل[5] على تفسير الجلالين[6] والتي سماها الفتوح الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، وهي واحدة من بين عشر حواش كتبت على تفسير الجلالين الذي كان مقررا دراسيا بالأزهر.

وسأحاول في هذا البحث الكشف عن معاني ودلالات المحكم والمتشابه في هذه الحواشي، وما يمنحانه من آفاق للنظر، مستندا إلى التفاسير التي اعتمدوها في شرحهم، رغبة في المساهمة في إثراء البحث في هذين المفهومين اللذين أفرزت دراستهما جدالا وسجالا شكل منعطفا خطيرا في تاريخ الفكر الإسلامي، وفي سياسة الدولة الإسلامية. ومن أجل المشاركة كذلك في تقليص هامش الاختلاف في القضايا الكبرى للأمة الإسلامية. فبقدر انغلاق أبواب الزيغ تتجلى سبل الرشاد.

1. المناولة المفهومية للمحكم والمتشابه:

أ- مفردات حافَّة وسياق:

احتفت كلمتي المحكمات والمتشابهات بمفردات تتوارد معانيها وتتساند، قطوفا دانية لكل لبيب، للإفصاح عن المعنى الجامع للآية الكريمة بصفة عامة، وبيان مفهوم المحكم والمتشابه بوجه خاص. ولا يسع هذه الوريقات أن تحيط بكل تلك المعاني والمفردات، فهذه كلمات الله تعالى، حسبنا منها ما بلغ السعي، وما أذن الله عز وجل أن يكشف من نوره.

الكتاب: سِجِلُّ تلك المفردات كلها، وهو من الكَتْبِ أي الجمع فهو يجمع السور والآيات، ويجمع المفردات بعضها إلى بعض، ومنها التي نحن في رحابها، فمن بعض خصائصه الجمع والتوليف والتأليف، والمقصود به هنا هو القرءان الكريم بدلالة (أنزل عليك).

الإنزال والتنزيل: كلمتان تتحدان في المادة والاستمداد، وتتمايزان في الإمداد والإبلاغ، فالإنزال يكون جملة واحدة، ويتلقى الأنبياء عليهم السلام كتبهم فيه دفعة واحدة، وقد ناسب كتب الشرائع السابقة، أما القرءان فأنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة، وتنزل مفرقا على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، تثبيتا له، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾[7]. واستفهام الكفار هذا دليل على عدم إدراكهم لمعنى الهداية التي تقتضي تجاوب الكتاب مع الناس في القضايا والنوازل

---

[5] – سليمان الجمل هو: سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل: فاضل من أهل منية عجيل (إحدى قرى الغربية بمصر) انتقل إلى القاهرة. (ت 1204هـ). ينظر الأعلام للزركيلي ج 3 ص 131.

[6] – الجلالين هما: جلال الدين المحلي وهو محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلي الشافعيّ: أصولي، مفسر. مولده ووفاته بالقاهرة (ت 864هـ). الأعلام للزركيلي ج 5 ص 333. وجلال الدين السيوطي وهو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب (ت 911هـ). ينظر الأعلام للزركيلي ج 3 ص 301.

7 – الفرقان: 32

حسب زمن وقوعها. والغريب أنهم استعملوا في استفهامهم (فعل نزّل) بصيغة المبالغة الذي تناسب التنزيل وهم يستفهمون عن الإنزال، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾[8]، قال الرّاغب: "خص الكتاب بالتنزيل لأمرين، أحدهما: أن هذا الكتاب لما كان حكمه مؤبدا والتنزيل بناء مبالغة، خص بها، تنبيها على هذا المعنى، وليس كذلك حكم الكتابين، والثاني: أن هذا الكتاب نزل شيئا فشيئا والكتابين مجملة"[9].

والإنزال والتنزيل وحي وإيتاء وإلقاء وتوصية، قال الله عز وجل: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾[10] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[11] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعاً مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[12]، كما قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لاَ تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾[13]. وقال عز وجل: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُوراً﴾[14]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾﴾[15]. ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[16] وقال جل شأنه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحاً وَالذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[17].

---

8 – النمل: 14

9 – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ط 2013، ج 4 ص 10، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

10 – البقرة: 136

11 – الزمر: 65-66

12 – الحجر: 87

13 – البقرة: 87

14 – الإسراء: 55

15 – المزمل: 5

16 – النمل: 6

17 – الشورى 13

تصديق الكتاب: وهو نوعان:

تصـــديق داخلي، جماع الكلام فيه قول النبي صـــلى الله عليه وســـلم لما سمع قوما يتدارؤون[18] ويتمارون في القرءان ويتجادلون فيه، قال: "إنَّما هلَكَ مَن كانَ قبلَكُم بِهَذا، ضـربوا كتابَ اللَّهِ بعضَـهُ ببعضٍ، وإنَّما نزَلَ كتابُ اللَّهِ يصـدقُ بعضُـهُ بعضًا، فلا تُكَذِّبوا بعضَهُ ببعضٍ فما عَلِمْتُم منهُ فَقولوا، وما جَهِلْتُم فَكِلوهُ إلى عالمِهِ"[19] ففي هذا الحديث تحذير شديد من ضرب القرءان بعضه ببعض، لإنه من دواعي الهلاك. وفيه إثبات لتصديق الآيات بعضها لبعضها، سواء منها المحكمات أو المتشابهات. وفيه نهي عن تكذيب بعضه ببعض، وفيه كذلك إرشاد لرد ما جُهل منه إلى من يعلمه.

وتصـديق خارجي يفهم من قول الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، فالقرءان الكريم يصـدق ما جاءت به كتب الشـرائع السـابقة. قال الشـيخ زاده في تفسـير هذه الآية: "(مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) حال من الكتاب أي حال كونه مصدقا لما تقدمه، إما من حيث أنه نازل حسبما نعت فيه، أو من حيث أنه موافق له في القصـص والمواعيد، والدعوة الى الحق والعدل بين الناس، والنهي عن المعاصـي والفواحش، وأما ما يتراءى من مخالفته له في بعض جزئيات الأحكام المتغيرة بسـبب تغير الأعصـار، فليس بمخالفة في الحقيقة، بل هي موافقة لها من حيث إن كلا من تلك الأحكام حق بالإضافة الى عصره، متضـمن للحكمة التي يدور عليها أمر الشريعة، وليس في المتقدم دلالة على أبدية أحكامه المنسـوخة حتى يخالفه الناسـخ المتأخر، وإنما يدل على مشـروعيتها مطلقا، من غير تعرض لبقائها وزوالها، بل نقول هو ناطق بزوالها، مع أن النطق بصـحة ما ينسـخها نطق بنسـخها، وزوالها ..وعبارة أبي السـعود ومهيمنا عليه أي رقيبا على سـائر الكتب المحفوظة من التغيير، لأنه يشـهد لها بالصـحة والثبات ويقرر أصـول شـرائعها وما يتأبد من فروعها ويؤيد أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاء وقت العمل بها"[20]. وهذه خصائص أخرى للكتاب أظهرها بيان التصديق فهو رقيب، ومقرر ومؤيد ومبين للكتب السابقة.

قال الإمام البيضـاوي في تفسـير قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ "لما كانت السـورة مقصـورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية صـدّرها بالرحمن، وقدّم ما هو أصـل النعم الدينية وأجلها، وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، فإنه أساس الدين ومنشأ الشرع وأعظم الوحي وأعز الكتب. إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها مصدق لنفسه ومصدق لها"[21]. فهو معجز مشتمل على خلاصة الكتب السابقة.

---

[18] – تَدَارَؤُوا: تَدَافَعُوا في الخُصومَةِ. (لسان العرب، مادة درأ)

[19] – مسند الإمام أحمد، ج 6 ص 285. رقم الحديث: 6741.

[20] – حاشية الجمل على الجلالين المسماة: بالفتوح الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، الشيخ سليمان الجمل، ج 2 ص 500 (بتصرف)، مطبعة التقدم العلمية، مصر.

[21] – أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشافعي البيضاوي (ت 685هـ)، ج 5 ص 170، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

قال الزمخشري في تفسيره لنفس السورة "عدّد الله عزَّ وعلا آلاءَه، فأراد أن يُقدِّم أوَّل شيءٍ، ما هو أسبقُ قِدمًا من ضُروبِ آلائه وأصنافِ نعمائِه، وهي نِعمةُ الدِّينِ، فقدَّمَ من نِعمةِ الدِّين ما هو في أعلى مراتبها وأقصى مَراقِيها، وهو إنعامُه بالقرآنِ وتنزيلِه وتعليمِه، لأنَّه أعظمُ وحي الله رتبةً، وأعلاهُ منزلةً، وأحسنُه في أبوابِ الدِّين أثرًا، وهو سَنامُ الكُتبِ السَّماويةِ ومِصدَاقها والعِيارُ عَلَيْها"[22]. قال الطيبي: "قوله: (والعِيَارُ عليها) عن بعضهم: العِيارُ: مصدر: عَايَرَ المكاييل؛ إذا عدَّلها، والمعدِّلِ يكون حفيظًا على المعدَّل ومُهيمنًا عليه، ولهذا قالوا: هو عِيارٌ على كذا، أي: القرآن عِيارٌ على سَائِرِ الكُتب كلِّها، ومُصدِّقُها ومُهيمنٌ عليها ليكون مستويًا"[23]. فهو سنام الكتب والعيار عليها، ومصدق لها، ومهيمن عليها. وأضاف الطيبي: "كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[24] وخُصَّ القرآنُ بالذِّكْرِ لأَنَّهُ أعظمُ وحيِ اللهِ رتبةً، وأعلاهُ منزلةً، وأجمعُ لما يُرادُ بالهِدايةِ منَ الكُتبِ السَّماويَّةِ، إذْ هو بإعجازِه، واشتِمالِه على مكارم الأخلاقِ، مُصدِّقٌ لنفسه ومِصدَاقٌ لها"[25]. فهو بهذا أجمعُ للمراد، معجزٌ مشتملٌ على مكارم الأخلاق، مصدق ومصداق.

وفي تفسير نفس الآيات قال الشيخ سليمان في حاشية الجمل واصفا القرءان الكريم: "أعظم وحي الله الى أنبيائه، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه، وأكثره ذكرا، وأحسنه في أبواب الدين أثرا، وهو **سنام الكتب السماوية** المنزل على أفضل البرية"[26].

تلك صنوف من الأوصاف والميزات خص بها الكتاب، تضفي على كلماته نفحة خاصة، وإيحاء خاصا، يفرد شخصيتها وكيانها. حتى تكاد تنطق بمكنونها.

الزيغ: "الميْلُ عن الاستقامةِ، والتزايغ: التمايل، ورجل زائغ، وقوم زاغة، وزائغون، وزاغَتِ الشمس، وزاغَ البصَرُ"[27]. فهناك فريقان: زائغو القلوب الذين مالوا عن الحق، والراسخون في العلم، الذين قالوا آمنا واستمنحوا الله تعالى عونه لئلا تزيغ قلوبهم.

---

[22] – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، العلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538 هـ)، ت الشيخ عادل احمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط 1 1418 هـ – 1998م، ج 6 ص 5، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية.

[23] – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ج 15 ص 146-147، ط 2013، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

[24] – الذاريات: 56

[25] – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ج 15 ص 147، ط 2013، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

[26] – حاشية الجمل على الجلالين المسماة: بالفتوح الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، الشيخ سليمان الجمل، ج 4 ص 257، مطبعة التقدم العلمية، مصر.

[27] – مفردات ألفاظ القرءان، الراغب الأصفهاني، ت صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق سوريا، ط1، 1412هـ 1912م. ص 387.

ابتغاء الفتنة، وابتغاء التأويل: قال الشيخ زاده في قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ "يعني طلب الكفر"[28] وقال في موضع آخر نقلا عن الكشاف "قوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ بقوله طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم، وطلب أن يؤولوه التأويل الذي يشتهونه. فسر الفتنة بالضلال عن الدين، إذ لا فتنة ولا ضلال أعظم من الفتنة في الدين، وذلك يقتضي فساده. وقال الأصم في تفسير الفتنة: إنهم متى أوقعوا تلك المتشابهات في **البين** صار بعضهم مخالفًا للبعض في الدين، وذلك يفضي إلى التقاول والمرج، وذلك هو الفتنة. وتقييد الفتنة بالفتنة في الدين والتأويل بالتأويل على ما يشتهون مستفاد من المقام"[29]. وهنا إيقاع المتشابهات في البين سبب في المخالفة.

الراسخون في العلم: قال الراغب: "رسوخ الشيء: ثباته ثباتا متمكنا.. والراسخ في العلم: المتحقق الذي لا يعرضه شبهة. فالراسخون في العلم هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾[30]"[31]، فالراسخ في العلم، استنادا لهذا التعريف، هو المؤمن المتحقق، الثابت في علمه والمتمكن منه، غير المرتاب، والذي لا تشتبه عليه الأمور.

وقد «سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الراسخون في العلم؟ قال: هو من برت يمينه، وصدق لسانه، وعف بطنه وفرجه، فذاك الراسخ»[32] وها هنا ثلاث صفات للراسخين في العلم: يمين بارة، وصدق لسان، وعفة بطن وفرج. ولا شك أن السائل لم يسأل عمن هم العلماء، إنما سؤاله عن سيماهم، التي تظهر بعدما يختم العلم أثره عليهم. والرسوخ بهذا الفهم يقتضي مجموعة من المواصفات، تعد من لوازم الفهم العميق، ومن متعلقات ثبوت القدم في العلم، فالراسخ سخي النفس، جواد كريم عفيف. صادق الكلام غير كذوب، خالص السريرة من الأهواء والأوهام، ثابت القلب على دين الله تعالى وشرعه ومنهاجه، تُصَدِّق حالُه وفِعَالُه مَقالَه.

إضافة لما سبق تتضمن الآيات الكريمات صورا بلاغية بديعة، تزيد المعاني جلاء ووضوحا منها الجمع والتقسيم والتفريق، التي ذكرها الطيبي في حاشيته "أمّا الجمعُ فقولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والتقسيمُ قولُه: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾، وقولُه: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، والتفريقُ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ الآية،

---

[28] – حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، ج 2 ص، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان

[29] – حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، ج 3 ص 14، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[30] – الحجرات: 15

[31] – مفردات ألفاظ القرءان، الراغب الأصفهاني، ت صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق سوريا، ط1، 1412هـ 1912م. ص 352.

32 – معجم الطبراني الكبير، ج 8 ص 177، رقم الحديث: 7658.

فلا بُدَّ مِن جعْلِ ﴿وَالرَّٰسِخُون﴾ قسِيماً له، لأنّ التقسيمَ حاصِر، وكان منَ الظاهرِ أن يُقالَ: فأمّا الذينَ في قلوبِهِمُ استقامةٌ فيتَّبعونَ المُحكَمَ، فوضَعَ موضعَ ذلك: ﴿وَالرَّٰسِخُون فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وإنّما وُضِعَ: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ موضعَ (يَتبعونَ) المحكَم لإيثارِ لفظِ ﴿وَالرَّٰسِخُون﴾ على (المهتدون) في الابتداء، لأنّ الرسوخَ في العِلم لا يَحصُلُ إلّا بعدَ الاهتداءِ والتتبُّع التامّ والاجتهادِ البليغ، فإذا استقامَ القلبُ في سبيلِ الرَّشادِ ورَسَخَ القدَمُ في العلم أفصَحَ صاحبُه النُّطقَ بالقولِ الحقِّ إرشاداً للخَلْق، وكفى بدُعاءِ الرّاسخينَ في العلم: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ شاهداً على أنّ ﴿وَالرَّٰسِخُون فِي ٱلْعِلْمِ﴾ مقابلٌ لقولِه: ﴿ٱلذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، وكذا ﴿يَقُولُون﴾ وما يتصلُ به مُقَابِلٌ لـ(يَتبعونَ) وما يتعلَّقُ به، فكأنهُ قيل: فأمّا الزائغونَ فيتَّبعونَ المتَشابِه، وأمّا الراسِخونَ فيتَّبعونَ المحكم ويَرُدُّونَ المتَشابِهَ إلى المحكَم بِقَدْر وُسعِهم"[33].

يُلمِح هذا الاحتفاء وهذا التتبع لشبكة العلاقات بين الكلمتين والمفردات الحافة، وما اشتملت عليه من معان جزيلة، وصور بلاغية بديعة، إلى أن مفهوم المحكم والمتشابه يستلزم أخذ السياق الذي وردا فيه في الحسبان، والانتباه لمدلولات الكلمات التي تدور في فلكهما، ولمسار التشريع وبقايا الشرائع السابقة، فهناك ثلة من التأثيرات: يستبطنها السياق الداخلي والذي يتجلى في البنية الداخلية للنص القرءاني، التي يحكمها التصديق المتبادل بين مفرداتها وفواصلها، والذي يشكل سياجا متينا من المعاني لا فطور فيه ولا تفاوت، ونسقا متقنا من التجليات، ينطلق مما يكتنزه افتتاح السورة من فيض رباني، يتلوه ذكر أساس توحيد الألوهية بما تقتضيه من صفات الحياة والقيومية، إلى الكلام الإلهي المسلوك في قلوب الخلق منذ العهد الأول، والتذكير بالذي يتوارثه الناس من نبي لنبي يصدق بعضه بعضا، من سلالة الإسلام، إلى منتهاه في الرحمة، ووضع الأوزار، والتكليف بالوسع، وبالغ كمال الدين وتمامه. ثم وعيد يحيل إلى وعد، وعلم الله تعالى بكل الخفايا والأسرار، وذكر للتصوير في الرحم بكيف المشيئة، ثم العودة إلى تأكيد توحيد الألوهية، مرفقا بمعاقد العزة والحكم، كل هذه الكثافة من المعاني الضافية، مقدمة لبسط الكلام عن المحكمات والمتشابهات. هذا معراج التأملات العميقة والاستقصاءات الدقيقة، إننا حقا أمام مكين من الإحكام وعطايا إدراكية من إمكان التشابه، نحن وسط تجليات مانحة للب، بما هو جوف للعقل، فسحات من الاشتغال المفضي إلى الإيمان الحق، وكبح جماح الزيغ، وإخماد نار الفتنة.

أما السياق الخارجي، فأول مطالعه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بما يمثله من بيان للقرءان، وأسباب النزول بما تمثله من مسبَّبات لواقع المسلمين وسندا لإدراكهم وفهمهم للتنزيل.

[33] – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ص 27، ط 2013، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

روت عائشة رضي الله عنها عن رسول صلى الله عليه وسلم قالت: "تَلَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قالَت: قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ **ما تَشَابَهَ منه**، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُم"[34]. وهذا الحديث يفسح في المعنى، وينقله من خصوص السبب إلى عموم اللفظ. ويحذر من الذين في قلوبهم زيغ، لأنهم لا ينطلقون من المحكمات، بل من أهوائهم وضلالاتهم، حينما يتراءى لهم طيف من الشَّبه، وأقل مضرة زيغهم إضاعة الوقت والجهد فيما لا طائل منه.

وضمن هذا السياق تتزيا أجواء الجزيرة العربية في أم القرى ومن حولها باستقبال الروح الأمين بالكتاب المبين، فمن حديث أنس رضي الله عنه قال: «قال أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله تعالى عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهيا إليها، بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها»[35]. لقد أدركت هذه المرأة المؤمنة بركات تنزلات الوحي على الأرض، وأثره على النفوس والأفئدة، فبكت لانقطاعه وأبكت.

زد على ما سبق أن ختام النبوة كان يومئذ يتلألأ في جنبات الأرض، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾[36] فكمل الله تعالى للناس دينهم، وفي كل هذه الأجواء تأخذ المحكمات معناها تتبعها المتشابهات. وتلك أحوال ترقى بالفهم. وتنعش ذائقة إدراك سامق الحقيقة ومستقرها. فأي كلمات الناس لها من التجليات والجلال والجمال ما لكلمات الله؟

ب– مفهوم المحكم:

مفهوم المحكم مرتبط، حسبما تمت الإشارة إليه، بما احتف به من الكلمات وروح معانيها وتركيبها، وبأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وبأجواء التنزيل، إضافة إلى مكنونه من المعاني، وجوهره وحقيقته، فكل في تلاقح وتلازم وانسجام، ينسج المعنى ويجليه.

---

[34] – صحيح الإمام البخاري، كتاب التفسير، باب: منه آيات محكمات، ج4 ص 1986 رقم: 4547.

[35] – أخرجه الإمام مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن، رضي الله عنها، (4/ 1907)، رقم: (2454).

[36] – سورة البلد: 1-2

ومما جاء في التعريفات للجرجاني أن المحكم هو: "ما أحكم المراد به عن التبديل والتغيير، أي التخصـــيص والتأويل والنســـخ، مأخوذ من قولهم: بناء محكم، أي مُتقن مأمون الانتقاض، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[37] والنصوص الدالة على ذات الله تعالى، وصفاته لأن ذلك لا يحتمل النسخ، فإن اللفظ إذا ظهر منه المراد، فإن لم يحتمل النسخ، فهو محكم، وإلا، فإن لم يحتمل التأويل، فمفسر، وإلا فإن سيق الكلام لأجل ذلك المراد، فنص، وإلا فظاهر، وإذا خفي لعارض، أي لغير الصيغة، فخفي، وإن خفي لنفسه، أي لنفس الصيغة وأدرك عقلا، فمشكل، أو نقلا، فمجمل، أو لم يدرك أصلا، فمتشابه"[38]. وبهذا فالمحكم هو المتقن غير المنتقض الذي لا تبديل ولا تغيير ولا نسخ فيه.

وقال الإمام البيضـــاوي: "آيات محكمات، أحكمت **عبارتها** بأن **حفظت من الإجمال والاحتمال**"[39]، أما قوله تعالى: ﴿أَلَٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ فمعناه عنده "أنها حفظت من فســـاد المعنى وركاكة اللفظ"[40] وفي هذا دلالة على مناعته الذاتية من الفساد والتحريف.

وعرف الشـــيخ زاده المحكم فقال: "المحكم ما كان له معنى، ولا يكون له احتمال معنى آخر"[41]. وحاصـــل الأمر عنده أن المحكم قد استفرد بمعناه فلا يشاركه غيره فيه.

وقال الزمخشـــري: "﴿أُحْكِمَتْ﴾: أُحكمتْ **عبارتُها** بأن **حُفِظتْ من الاحتمالِ والاشْـتِباه**"[42] وشـــرح الطيبي ذلك بقول الزجاج "المعنى: **أُحكِمت في الإبانة**، فإذا سَمِعَها الســـامعُ لم يَحْتَجْ إلى التأويل، وقول الرّاغب: "المحكَم قد وُصِـــفَ به القرآنُ على وجْهَين، أحدُهما: عامٌّ في جميعِه، نحو: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾"[43] و ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾[44]، يعني بذلك المحكَم نحو: بناء مُحكَم، وعَقْدٌ مُحكَم. والثاني: ما وُصِـــفَ به بعضُ الكتاب، وهُو المذكورُ في

37 – البقرة: 231

38 – التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني 816 هـ، ت: إبراهيم الأبياري، ص 263 دار الديان للتراث، 1403هـ، مصر العربية.

39 – أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشافعي البيضاوي (ت 685هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت. مقدمة التفسير

40 – أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشافعي البيضاوي (ت 685هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت. مقدمة التفسير

41 – حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، ج 3، ص 10، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

42 – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ج4 ص 18، ط 2013، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

43 – هود: 1

44 – يونس: 1

قولِه: ﴿مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ﴾[45]، وهُو ما لا يصـــعُبُ على العالِمِ معرفتُه لفظاً أو معنىً. وقيل: ما لا يحتاجُ العالِمِ في معرفتِه إلى تكلُّفِ نظَر"[46]. هذا الشرح جعل **الإبانة جوهر المحكم وحقيقته**.

قال الطيبي: "وقيل: ما لا يحتاج العالم في معرفته إلى تكلف نظر، وعكســه المتشــابه"[47]. فما دام مبينا فلا تكلف في معرفته.

وفي تفســير الجلالين ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ﴾ **واضــحات الدلالة** (هن أم الكتاب) **أصــله المعتمد عليه في الإحكام**"[48]. وهو يشـير هنا إلى أن الآيات المحكمات هن المعتمد لإحكام المراد في المتشابهات.

وقال سليمان الجمل: " فان قيل القرآن نزل لإرشاد العباد فهلا كان كله محكما. فالجواب أنه نزل بألفاظ العرب وعلى أســلوبهم وكلامهم على ضــربين: الموجز الذي لا يخفى على ســامع، هذا هو الضــرب الأول. والثاني المجاز والكنايات والاشارات والتلويحات"[49].

إذا جمعنا هذه التعريفات فيمكن القول: إن المحكم هو الأصـل الواضـح، المتقن، البين، المأمون من الانتقاض، المحفوظ من التبديل والتغيير والنسخ، والإجمال، والاحتمال، والاشتباه، المستفرد بمعناه. والمحكمات أخص منه، وإليها ترد المتشابهات لإحكام مرادها.

مثال للمحكم بنص القرءان:

نقل الشــيخ زاده عن قتادة في تفســير قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، "كل ســورة فيها ذكر القتل فهي محكمة وهي أشد القرآن على المنافقين. وقيل لها محكمة لأن النسخ لا يرد عليها من قِبَلِ أن القتال نَسخَ ما كان

---

[45] – آل عمران: 7

[46] – – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ص18-19، ط 2013، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

[47] – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ج 4 ص 19، ط 2013، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

[48] – تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي (ت 764هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ)، ط 1436هـ 2015م، مكتبة مدار الوطن للنشر، الرياض، السعودية. ص 68

[49] – حاشية الجمل على الجلالين المسماة: بالفتوح الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، الشيخ سليمان الجمل، ج 1 ص 446-447، مطبعة التقدم العلمية، مصر.

من الصفح والمهادنة وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة. وقيل: هي المحدثة لأنها حين يحدث نزولها لا يتناولها النسخ ثم تنسخ بعد ذلك أو تبقى غير منسوخة"[50].

ت– مفهوم المتشابه:

احتفت مفردة المتشـــابهات، كالمحكمات، بحصـــن كثيف من الكلمات والمعاني، والأجواء، التي تفرد معناها وتبين حقيقتها وجوهرها.

وقد جاء في التعريفات أن المتشـــابه: "هو ما خفِي بنفس اللفظ، ولا يرجى دركه أصـــلا. كالمقطَّعات في أوائل السور"[51]. بناء على هذا التعريف فالمتشابه عند الجرجاني هو الخفي غير المدرك.

وقال الراغب: "والمتشـابه في القرآن ما أُشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إما من حيث اللفظ، أو من حيث المعنى، فقال الفقهاء: المتشابه ما لا يُنبيء ظاهره عن مراده"[52]. هو المشكل الذي يباين ظاهره مراده.

وقال الشـيخ زاده: "المتشـابه ما يكون له معنى، ويكون له احتمال معنى آخر"[53] بهذا فالمتشـابه عنده هو ما تواردت عليه المعاني، وهو بذلك محل التأويل لإدراك المراد.

قال الطيبي: "وقيل: ما لا يحتاج العالم في معرفته إلى تكلف نظر، وعكسه المتشابه"[54]. المفهوم من هذا أن المتشابه هو ما يحتاج العالم في معرفته إلى تكلف نظر، لاحتماله للمعاني. فالتكلف هنا بحث وكشـــف عن المحكم الذي يصـــح أن يرد إليه.

قال سـليمان الجمل: " فان قيل القرآن نزل لإرشـاد العباد فهلا كان كله محكما فالجواب أنه نزل بألفاظ العرب وعلى أسلوبهم وكلامهم على ضربين الموجز الذي لا يخفى على سامع هذا هو الضرب الاول والثاني المجاز والكنايات والاشارات والتلويحات وهذا هو المستحسن عندهم فأنزل القرآن على الضربين ليتحقق عجزهم فكأنه قال عارضوه بأي الضربين شئتم

---

[50] – حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، ج 7، ص591-592، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[51] – التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني 816 هـ، ت: إبراهيم الأبياري، ص 253 دار الديان للتراث، 1403هـ، مصر العربية.

[52] – مفردات ألفاظ القرءان، الراغب الأصفهاني، ت صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق سوريا، ط1، 1412هـ 1912م، ص 443.

[53] – حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، ج 3 ص 10، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[54] – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ج 4 ص 19، ط 2013، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

ولو نزل كله محكما لقالوا هلا نزل بالضرب المستحسن عندنا"[55] وأضاف أن المصنف أشار إلى أن "التشابه من صفات المعنى فوصف اللفظ به تجوّز"[56].

يتضح من هذه التعريفات أن المتشابه من صفات المعنى، وهو المشكل الذي تواردت عليه المعاني، بمباينة مراده لظاهره، وهو المجاز والكنايات والإشـــارات والتلويحات، وهو الخفي غير المدرك على الحقيقة. إذ لا أحد يشـــترك مع الله في علمه، فمنتهى المراد عنده سـبحانه، وإنما هي أفهام الخلق ترتقي إلى المنزلة التي يرتضـيها الله عز وجل لبعض عباده. وعلم العلماء مستمد من علمه سبحانه.

2.مرد الاختلاف في التحديد:

رغم وضوح مفهوم المحكم ومفهوم المتشابه اختلف المفسرون وأصحاب الحواشي في ترجيح ما يناسب كل واحد منهما من الأدلة، فلنأخذ على سبيل المثال آيتين من كتاب الله تعالى، تضاربت الأفهام في إحكام واحدة منهما وتشابه الأخرى: قول الله تعالى في ســـورة الأنعام: ﴿لا تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَٰرُ﴾[57]، وقوله عز وجل في ســـورة القيامة: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[58]، ومدار الاختلاف حول استحالة أو إمكان رؤية الله عز وجل يوم القيامة انطلاقا من بيان معنى الآيتين:

قال البيضاوي: "﴿لا تُدْرِكُهُ﴾ أي لا تحيط به ﴿ٱلأَبْصَٰرُ﴾ جمع بصر، وهو حاسة النظر، وقد يقال للعين من حيث إنها محلها. **واسـتدل به المعتزلة على امتناع الرؤية، وهو ضـعيف** لأنه ليس الإدراك مطلق الرؤية ولا النفي في الآية عامًا في الأوقات، فلعله مخصوص ببعض الحالات، ولا في الأشخاص فإنه في قوة قولنا: لا كل بصر يدركه، مع أن النفي لا يوجب الامتناع. ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلأَبْصَٰرَ﴾ يحيط علمه بها. ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصـــار كالأبصـــار. ويجوز أن يكون من باب اللف أي لا تدركه الأبصـــار لأنه اللطيف، وهو يدرك الأبصـــار لأنه الخبير، فيكون اللطيف مستعارًا من مقابل الكثيف لما لا يُدرَك بالحاسة ولا ينطبع فيها"[59]. فيرى إمكان الرؤية يوم القيامة خلاف ما يراه

---

[55] – حاشية الجمل على الجلالين المسماة: بالفتوح الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، الشيخ سليمان الجمل ج 1 ص 446-447، مطبعة التقدم العلمية، مصر.

[56] – حاشية الجمل على الجلالين المسماة: بالفتوح الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، الشيخ سليمان الجمل، ج 1 ص 446-447. مطبعة التقدم العلمية، مصر.

[57] – الأنعام: 103

[58] – القيامة: 23

[59] – أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشافعي البيضاوي (ت 685هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت. للآية 103 من سورة الأنعام..

المعتزلة من امتناعها فتكون هذه الآية متشابهة بالنسبة إليه ترد إلى المحكمة "﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ **تراه** مستغرقة في مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه"[60].

وشرح الشيخ زاده قول الإمام البيضاوي الآنف الذكر فقال: "وجه الاستدلال أن إدراك البصر عبارة عن الرؤية فقوله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ يقتضي أن لا يراه شيء من الأبصار في شيء من الأحوال بدليل صحة استثناء جميع الأشخاص في جميع الأحوال منه بأن يقال: لا تدركه الأبصار إلا بصر كذا أو إلا في الحالة الفلانية، وصحة الاستثناء من جملة دلائل عموم المستثنى منه فثبت أن عموم الآية يفيد عموم النفي لكل الأشخاص في جميع الأحوال. وأجاب أهل السنة عن هذا الاستدلال بأن الرؤية جنس تحتها نوعان: رؤية مع الإحاطة ورؤية لا مع الإحاطة. فالتي تسمى بالإدراك منها هي الرؤية مع الإحاطة، وهي المنفية بهذه الآية، ونفي أحد نوعي الجنس لا يوجب نفي الجنس رأسا، فلم تكن الآية دليلاً على نفي الرؤية مطلقًا، فيجوز أن يراه المؤمنون يوم القيامة. سلمنا أن الإدراك هو الرؤية مطلقًا سواء كانت مع الإحاطة أو لا مع الإحاطة، لكن لا نسلم دلالة الآية على انتفائها في جميع الأوقات لأن نفيها ذكر مطلقًا، ولم يقيد بجميع الأوقات، فيحمل على النفي في بعض الأوقات جميعًا بين هذه الآية وبين النصوص الواردة. وقد روي في تفسير الآية ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ في الدنيا، وهو يُرى في الآخرة "[61]. وهو كذلك مع إمكان الرؤية، وهذه الآية عنده متشابهة ترد إلى المحكمة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، التي يؤكد في تفسيرها حصول النظر إذ يقول: "إن الوجوه البهية أي الحسنة المتلألئة من كثرة التنعم بنعيم الجنة يومئذٍ أي يوم القيامة **ناظرة إلى الله تعالى**"[62].

وقال الطيبي، قال: "قولُه (يقصد الزمخشري): ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾[63]، مثال **للمحكم عنده**، وعندَنا **متشابه** يُحمَلُ على **المحكَم** الذي هُو ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[64]، وتأويلُها: أي: لا تُحيطُ به الأبصار، أو جميعُ الأبصارِ لا تُدركُه،

---

[60] – أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشافعي البيضاوي (ت 685هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت. للآية 23 من سورة القيامة

[61] – حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، ج 4 ص 113، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[62] – حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، ج 8 ص 421، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[63] – الأنعام: 103

[64] – القيامة: 23

وقولُه: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مِثالٌ **للمتشابِه عندَه**، مؤوَّلٌ بأَنَّهم لا يتوقّعونَ النِّعمةَ والكرامةَ إلّا من ربِّهم"[65]. وخالف في هذا استدلال الزمخشري، الذي حمل معنى النظر في الآية على معنى الانتظار، أي انتظار نعمة الله تعالى وعطائه، وأورد الطيبي حديثا للرسول صلى الله عليه وسلم عن الرؤية يوم القيامة، مستنكرا رأي الزمخشري، قال: "كيف وقد نُقِلَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، أنّه قال: «إذا دَخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يقولُ اللهُ عزّ وجل: تُريدونَ شيئاً أَزيدُكم؟ فيقولونَ: أَلَمْ تبيض وُجوهَنا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنا الجنَّةَ وتُنَجِّنا مِن النار؟ قالَ: فيُكشفُ الحجاب، **فما أُعْطوا شيئاً أَحَبَّ إليهم مِن النَّظر إلى ربِّهم عز وجل**»[66]. ويورد تعزيزا لرأيه تعليل الإمام الفخر الرازي لإمكان الرؤية حيث يقول: "لا يمكنُ حملُ النظرِ على الانتظارِ، لأنَّ لذَّةَ الانتظارِ مع يقينِ الوقوعِ حاصلةٌ في الدّنيا، ولا بُدّ أنْ يحصلَ في الآخرةِ شيءٌ أَزْيدَ منه في مَعرضِ الترغيبِ في الآخرة، و**ليس ذلك إلّا النَّظَرَ إلى وجهه الكريم**"[67]. ما ترك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانا لجدال حول هذه المسألة.

قال جلال الدين السيوطي:" ﴿لا تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَٰرُ﴾[68]، أي لا تراه **وهذا مخصوص لرؤية المؤمنين له** في الاخرة لقوله تعالى: ﴿وُجُوه يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وحديث الشيخين أنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر"[69]. يتبين من هذا البيان أن الشيخ جلال الدين السيوطي مع إمكان الرؤية يوم القيامة، وأنها مخصوصة للمؤمنين، وبهذا فهذه الآية متشابهة وقد رَدَّ معناها إلى المحكمة: "﴿وُجُوه يَوْمَئِذٍ﴾ أي في يوم القيامة ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ حسنة مضيئة ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي **يرون الله سبحانه وتعالى في الآخرة**"[70]. فالرؤية عنده خالصة للمؤمنين يوم القيامة. والتشابه الوارد على الآية هو من جهة الإحاطة في الإدراك، والانتظار من النظر أيهما المقصود في المعنى.

قال سليمان الجمل في شرح كلام السيوطي: "قال جمهور المفسرين معنى الادراك الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته، والأبصار ترى الباري جل جلاله، ولا تحيط به، كما أن القلوب تعرفه، ولا تحيط به، وقال سعيد بن المسيب في تفسير قوله

---

65 – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ج 4، ص 21، ط 2013، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

66 – صحيح الإمام مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم: 298

67 – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ج 16 ص 170، ط 2013، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

68 – الأنعام: 103

69 – تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي (ت 764هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ)، ط 1436هـ 2015م، مكتبة مدار الوطن للنشر، الرياض، السعودية. سورة الأنعام الآية 103

70 – تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي (ت 764هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ)، ط 1436هـ 2015م، مكتبة مدار الوطن للنشر، الرياض، السعودية.

لا تدركه الأبصار، لا تحيط به الأبصار. وقال ابن عباس كلَّت أبصار المخلوقين عن الاحاطة به. وقد تمسك بظاهر الآية قوم من أهل البدع، وهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة، وقالوا أن الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه، وإن رؤيته مستحيلة عقلا، لأن الله أخبر أن الأبصار لا تدركه، وإدراك البصر عبارة عن الرؤية، إذ لا فرق بين قوله أدركته ببصري، ورأيته ببصري، فثبت بذلك أن قوله لا تدركه الأبصار بمعنى لا تراه الأبصار، وهذا يفيد العموم، ومذهب أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم في عرصات القيامة وفى الجنة، وأن رؤيته غير مستحيلة عقلا، واحتجوا لصحة مذهبهم بتظاهر أدلة الكتاب والسنة والاجماع من الصحابة ومن بعدهم من سلف الامة على إثبات رؤية الله تبارك وتعالى للمؤمنين في الآخرة. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وُجُوه يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[71].. فالمنفى إنما هو الإحاطة به تعالى والشمول"[72]. وعدها أيضا متشابهة فردها إلى قول الله تعالى: ﴿وُجُوه يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[73]، وقال "والمعنى أن الوجوه الحسنة يوم القيامة **ناظرة الى الله تعالى، وهذا معنى صحيح**"[74].

ومع هذا يرد معنى آخر حول إقدار الله تعالى أبصار المؤمنين على الإدراك يوم القيامة، فالأبصار لا تدركه لكنه هو يجعلها تدركه، إنعاما وتكرما. قال الطيبي معنى قولِه تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾[75] "أن المانعَ من الرؤية كوْني غيرَ متمكّنٍ منها، لاحتِجابِكَ عنّي، فارفَع الحجابَ بيني وبينك، لأنظرَ إليك وأراك، وذلك حين سمعَ الخطابَ والكلامَ القديمَ بغير واسطة. ومعنى قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾[76] أن المانعَ ليس إلا من جانبِك، وأنّي غيرُ محجوب، بل متحجّب بحجاب منك، وهو كونك فانياً في فان، وأنا باقٍ، ووصفي باقٍ، فإذا جاوزْتَ قَنْطَرَةَ الفَنَاء، ووصلْت إلى دارِ البقاء، فزْتَ بمطلوبك"[77].

فيتبين من هذا أن أصحاب الحواشي الثلاث اتفقوا في مسألة الرؤية، وكلهم مع إمكانها يوم القيامة. واتفق صاحبي تفسير الجلالين على مثله، ومعهم الإمام البيضاوي، وخالفهما الزمخشري. ولا شك أن موطن الاختلاف كما أشار إليه

---

71 – القيامة: 23

72 – حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، ج 2 ص 76، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

73 – القيامة: 23

74 – حاشية الجمل على الجلالين المسماة: بالفتوح الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، الشيخ سليمان الجمل، ج4 ص 452، مطبعة التقدم العلمية، مصر.

75 – الأعراف: 143

76 – الأعراف: 143

77 – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ج 6 ص 550، ط 2013، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

البيضاوي وأصحاب الحواشي مرده إلى الاختلاف في المذهب والاختيارات العقدية. فالأشاعرة يقولون بإمكان الرؤية يوم القيامة، والمعتزلة يقولون باستحالتها. رغم أنهم ينطلقون من غرض واحد هو الرغبة في إجلال الله تعالى وتنزيهه، والحرص على عدم وصفه بما لا يليق به عز وجل من الأحوال والأغراض والأوصاف.

يبدو أن هذا القلق الاستدلالي منشؤه كذلك الاشتباه في المعنى، وليس مرده جوهر الكلمة أو حقيقتها، أو ما احتفت به من أجواء وسياقات دلالية، وحاصل الفصل يستلزم مستندا، ولا أبلغ في ذلك من كتاب الله تعالى، أو رد الأمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أفصح عنه الرواة بما يسد ثغرة القلق والارتياب.

3. تقسيم وتحصيل نظر:

أ- مستويات الإحكام:

أفضى البحث في مفهوم الإحكام في الحواشي والتفاسير المرتبطة بها والتفكير الملي في مضمون الآيات التي تشكل شبكة من العلاقات المناولة لهذا المفهوم، إلى استخلاص تصور لبعض مستويات الإحكام، والتي يمكن عرضها فيما يلي:

أ- **الإحكام الداخلي أو الذاتي**: وهو ما يمنع المحكم بما استبطنه في ماهيته من حدوث الإبهام عليه، فقد جُعِلت الإبانة جوهرَه، والإتقانُ سَبكَه، فهو محكم البناء، مستفرد بدلالته ومعناه، لا يترك مجالا للاشتراك، إذ في البَين حالَ الاشتراكِ تُلقَى الشبهات. بهذا فهو محصن ضد كل غزو فكري أو عقدي، يحمل حكمته وقوته وبرهان صدقه في ذاته. ومثَّل الطيبي لهذا المستوى بالمحكم من جهةِ اللَّفظِ والمعنى، كقولِه تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[78].

ب- **الإحكام المُحصِن أو لازم المتشابه** وهو ما يحجب دخول الإبهام على غيره، أي أنه يُحكِم غيره بالكشف عن مراده الحقيقي، وهو من جهة عمل العالم انبثاق عملية استقصاء عن المحكَم اللازم للمتشابه، وكأن كل متشابه له لازمه أو نظيره من المحكم يسنده في المعنى ويقويه، وينافح عن حقيقته، ويعين العالم على تجليها وظهورها. فهو البداية وهو النهاية. والباحث يختار فيه مساران: فإما أن ينطلق من المحكم مستمسكا، ويدخل المتشابه مستكشفا، فيعود إلى المحكم غانما مصدقا مخبتا، وإما أن ينطلق مما تشابه، متماريا مجادلا فيعود حسيرا يجر تلفيقا، وقد أصابه الزيغ وسقط في الفتنة، فيستقبلَ ما يلقي الشيطان كأنه الكشف والفتح المبين. يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي

[78] - الأنعام: 151

شِفَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾[79] "التمني جاء في اللغة بمعنيين تمني القلب والقراءة، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[80] أي إلا قراءةً، لأن الأميَّ لا يعلم القرآن من المصحف، وإنما يعلمه قراءة. وقال رواة اللغة: الأمنية القراءة، واحتجوا عليه ببيت حسان رضي الله تعالى عنه وهو تمنى كتاب الله أول ليله[81]. وقيل: الأولى في تأويل الآية أن يقال: التمني بمعنى القراءة، فقوله تعالى: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[82] أي **عند تلاوته القرآن ألقى في قلوب الكفرة ما يجادلون به الرسول ويحاجونه ويوقعون به شبهة في قلوب أتباعه ليمنعوهم عن اتباعه**، كقولهم عند سماع قول الرسول: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[83] إنه يحل ذبيحة نفسه، ويحرم ذبيحة الله تعالى. فينسخ الله تعالى ما يلقي الشيطان في قلوب الكفرة بإنزال قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾[84] ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾[85] فبين به أنه إنما حل هذا بذكر اسم الله عليه، وحرم الآخر بعدم ذكر اسم الله عليه"[86]. فالشبهة الملقاة هنا، لإثارة الفتنة بها هي إلماحهم أن الميتة ذبيحة الله تعالى بناء على المعلوم أن الله تعالى هو الذي يحيي ويميت (يشيرون إلى أن إماتته الشيء هي ذبحه)، فهم يقولون إن الرسول صلى الله عليه وسلم يحل ما ذبح بيده، أما ما أماته الله فهو يحرمه، وهذه شبهة صنعتها عقولهم المريضة فنسخ الله تعالى ذلك، وأحكم قوله تعالى بقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾[87].

ت- **الإحكام التساندي**: هو تساند الآيات فيما بينها لتكون مصدا لكل إبهام أو إيهام اختلاف. قال الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[88] قال الشيخ زاده: "إن

---

[79] – الحج: 52-53-54

[80] – البقرة: 78

[81] – قيل إن البيت لشاعر غير حسان بن ثابت: وهو كعب بن مالك الأنصاري وهو من أهل المدينة من أكابر الشعراء، وهو شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك، يقول: تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ ليلهِ ***وآخِرَهُ لاقَى حِمامَ المقادِرِ.

[82] – الحج: 52

[83] – المائدة: 3

[84] – الأنعام: 121

[85] – الأنعام: 118

[86] – حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، ج 6 ص 126، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[87] – الأنعام: 121

[88] – النساء: 82

العلماء قالوا: القرآن يدل على صدقه عليه الصلاة والسلام من ثلاثة أوجه: أحدها اطراد ألفاظه في الفصاحة، وثانيها اشتماله على الإخبار عن الغيوب، والثالث **سلامته من الاختلاف**"[89]. وقال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾[90]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّما هلَكَ مَن كانَ قبلَكُم بِهَذا، ضربوا كتابَ اللَّهِ بعضَهُ ببعضٍ، وإنَّما نزَلَ كتابُ اللَّهِ يصدقُ بعضُهُ بعضًا، فلا تُكَذِّبوا بعضَهُ ببعضٍ فما عَلِمْتُم منهُ فَقولوا، وما جَهِلْتُم فَكِلوهُ إلى عالمِهِ»[91]. وعلى هذا البيان، ليست سلامة القرءان من الاختلاف، وبراءته من العوج، وتصديق بعضه بعضا، إلا تجل من تجليات إحكامه.

ب- أقسام المتشابه:

فصل كثير من المفسرين والباحثين الحديث عن المتشابه وقسموه إجمالا إلى ثلاثة أنواع: **متشابه من جهة اللفظ والمعنى، ومتشابه من جهة اللفظ فقط، ومتشابه من جهة المعنى فقط**. لكن الطيبي في حاشيته على الكشاف جمع هاته الأنواع في قسم واحد وهو **المتشابه لذته**، وأضاف قسما آخر وهو **المتشابه لعارض**، وفصل القول فيهما فقال: "والقسمُ الأوّلُ على ضُروب: **أحدُها: ما يرجعُ إلى جهةِ اللَّفظِ** مُفرَداً، إمّا لغَرابتِه، نحو: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[92]فق، أو لمشاركةِ الغَيْر، نحوَ اليدِ والعَيْن، أو مُرَكَّباً: إمّا للاختصارِ، نحو: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[93] ، أو للإطنابِ، نحوَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[94] ، أو لإعلالِ اللَّفْظِ، نحوَ: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ﴾[95] الآية. **وثانيها: ما يرجعُ إلى المعنى**، إمّا مِن جهةِ دقّتِه كأوصافِ الباري عزَّ وجلّ، وأوصافِ القيامة، أو مِن جهةِ تركِ الترتيبِ ظاهراً، نحو: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ إلى قولِه: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[96]. **وثالثُها: ما يَرجعُ إلى اللَّفظِ والمعنى معاً**، وأقسامُه- بحسَبِ تركُّبِ بعضِ وجوهِ اللَّفظ معَ بعضِ وجوهِ المعنى - نحوَ: غَرابةِ اللّفظ معَ دقّةِ المعنى -

---

[89] - حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، 3 ص 78، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ج

[90] - الكهف: 1-4

[91] - مسند الإمام أحمد، ج 6 ص 285. رقم الحديث: 6741.

[92] - عبس: 31

[93] - يوسف: 82

[94] - الشورى: 11

[95] - المائدة: 107

[96] - الفتح: 25

ستَّةُ أنواع، لأنّ وجوهَ اللّفْظِ ثلاثة، ووجوه المعنى اثنان، ومضروب الثلاثةِ في اثنينِ ستّة. **والقسمُ الثاني من المتَشابِه، وهو ما يَرجعُ إلى ما يَعرِضُ اللّفظ**، وهُو خمسةُ أنواع. الأوّل: من جهةِ الكمّيّة، كالعُمومِ والخصوص، والثاني: من طريقِ الكيفيّة كالوجوبِ والنّدب، والثالث: من جهةِ الزّمانِ كالنّاسخِ والمنسوخ، والرابع: من جهةِ المكانِ كالمواضِعِ والأمورِ التي نزَلتْ فيها، نحوَ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَاتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[97] ، وقولُ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾[98] فإنهُ يُحتاجُ في معرفةِ ذلك إلى معرفةِ عادتهم في الجاهليّة. الخامسُ: مِن جهةِ الإضافة، وهِيَ الشروطُ التي بها يصِحُّ الفعلُ أو يفسُدُ، كشروطِ العباداتِ والأنكِحةِ والبُيُوع"[99].

أما الشيخ زاده فربط المتشابه بمذهب الحنفية التي جعلته ضمن أربعة أقسام حسب ظهور مراد اللفظ أو عدمه: "أقسام الأول (يعني اللفظ ظاهر المراد): الظاهر والنص والمفسر والمحكم، وأقسام الثاني (غير ظاهر المراد): الخفي، والمشكل، والمجمل، والمتشابه"[100]

أما في حاشية الجمل فلم يذكر له تفصيلا وإنما عده ضربا من ضروب البلاغة حيث قال: "فان قيل القرآن نزل لإرشاد العباد فهلا كان كله محكما فالجواب أنه نزل بألفاظ العرب وعلى أسلوبهم وكلامهم على ضربين الموجز الذي لا يخفى على سامع، هذا هو الضرب الأول. والثاني المجاز والكنايات والاشارات والتلويحات، وهذا هو المستحسن عندهم فأنزل القرآن على الضربين ليتحقق عجزهم فكأنه قال عارضوه بأي الضربين شئتم"[101].

ت- تحصيل النظر:

اتضح في تعريف المحكم أنه واضح الدلالة، بين المعنى من غير تكلف نظر، وهذا يعني أن طلب الدليل فيه مبتغاه التأكيد والإقرار.

أما المتشابه فتبين أنه يحتمل عدة معان، ويحتاج إلى تحديد المراد، فهو إذن يدعو إلى الاستدلال، لكنه استدلال للاختيار أولا ثم الإقرار والتأكيد ثانيا بلازم الرد للمحكم، وعلى هذا فإن "إيرادَ المتشابِه في التنزيل باعث على تعَلُّم عِلمِ الاستدلال؛ لأنّ معرفةَ المتشابِه متوقِّفةٌ على معرفةِ عِلم الاستدلال، فتكونُ حاملةً على تعلُّمِه، فتَتوجَّهُ إليه الرغَباتُ ويتَنافَسُ

---

[97] – البقرة: 18

[98] – التوبة: 37

[99] – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ج4 ص 20، ط 2013، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

[100] – حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، ج 3 ص 10، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[101] – حاشية الجمل على الجلالين المسماة: بالفتوح الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، الشيخ سليمان الجمل، ج 1 ص 446-447، مطبعة التقدم العلمية، مصر.

فيه المحصلونَ، فكانَ كالشيءِ النافق، بخلافِه إذا لم يوجَدْ فيه المتَشابِهُ فلم يُحْتَجْ إليه كلَّ الاحتياج فيَتعطَّلَ ويضيعَ ويكونَ كالشيءِ الكاسِد.. وحاصِلُه أنّ هذه الداعيةَ أقوى الدواعي"[102].

لهذا فإدراك مراد ومعنى الآيات لابد فيه من تعلم علم الاستدلال والدربة عليه، وإعمال الفكر، واستفراغ الجهد في البحث، مع ضرورة الإخلاص لله تعالى وتقواه: ﴿وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[103]. وقد أورد الشيخ محيي الدين شيخ زاده وهو يفسر قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[104] كلاما جميلا في هذا المعنى لابن سينا يقول فيه: "إن توقد الزجاجة من تلك الشجرة يحتاج إلى تكلف وإعمال، مثل أن يعصر زيتونها، ويستخرج زيتها، وتروى الفتيلة بزيتها. فكذلك الاستحصال من المطالب بطريق الفكر، فإن النفس تحتاج فيه إلى مزاولة الفكر والاعتمال. فكان قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾ إشارة إلى تشبيه مرتبة التمكن من الاستحصال بطريق الفكر بتوقد الزجاجة من شجرة الزيتونة، وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا﴾ إشارة إلى تشبيه تمكنها بطريق الحدس بتوقد الزجاجة من الزيت. ثم إن القوة النفسانية المتمكنة من الاستحصال إذا بلغت وقويت في صفائها عن الكدورات الطبيعية إلى غاية اللطافة يكون استفاضتها من عالم الغيب في غاية الكمال والقوة، حتى تكاد تعلم، وإن لم تتصل بملك الوحي والإلهام، فكان قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ إشارة إلى تشبيه تمكنها من تحصيل النظريات بقوة قدسية بالزجاجة التي لا تحتاج في توقدها إلى أن تمس النار زيتها، بل تشتعل بمجرد صفاء الزيت الحاصل فيها. فظهر بما قررناه أن للقوة العقلية في مرتبة تمكنها من تحصيل النظريات ثلاثة اعتبارات: تمكنها منه بطريق الفكر وبطريق الحدس وبالقوة القدسية"[105]. فهذه درجات لإدراك المعاني وبلوغها، وتلك منزلة الراسخين في العلم.

---

[102] – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ج4 ص 22، ط 2013، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

[103] – البقرة: 282

[104] – النور: 35

[105] – حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، ج 6 ص 234، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

والناس في أمر تدبر القرءان الكريم، كما قال الشيخ زاده رحمه الله في حاشيته، على قسمين: "القسم الأول من اشتعل نور فطرته الأصلية وأثمرت شجرة قابليته الفطرية بأن أجاب من دعاه إلى الرشاد وسلك ما هداه إليه من سبل السداد، والقسم الثاني من أطفأ نور فطرته السليمة وأبطل قابليته الفطرية ولم يتنبه من رقاد غفلته بالنداء وأصم واستكبر واستغشى ثوب الردى. والقسم الأول فرقتان: فرقة بلغت بإجابة الدعوة واتباع الشريعة إلى حيث تنورت رياض بصيرتها وتوقدت أنوار معرفتها حتى تمكنت من التفكر في حقائق القرآن ودقائقه ومن الاطلاع على نكته والوقوف على دقائقه ومن الغوص في لجج معانيه العميقة لاستخراج لأليه واستنباط عجائب مكنوناته، وفرقة لم تبلغ إلى هذه المرتبة، ولم تزد على ما نالته من شرف إجابة الدعوة، وقبول الحق، وسلوك سبيله، ولم يتيسر لها الارتقاء إلى مدارج الفضائل العلمية ومصاعد الكمالات العرفانية، لعدم تجردها عن الشواغل البشرية والصوارف النفسانية، لكنها مصغية لاستماع الحق، وجامعة حواسها عن التفرق إلى ما لا يعنيها، وهي حاضرة القلب تعلم ما يتلى عليها، وتفهم ما يلقى إليها"[106]. وحال القسم الأول كأنه حصل لهم ما حكاه الطيبي: "انسدادُ مسالكِ الالتفاتِ مِن القلب، باستيلاءِ أنوارِ الكشفِ عليه"[107].

خاتمة:

أدى البحث في مفهوم المحكم والمتشابه والفرق بينهما في الحواشي الثلاث والتفاسير المرتبطة بها، إلى القول بالثبوت والاستقرار للمحكم، إذ لا احتمال فيه للمعاني، وهو الأصل الذي لا تبديل ولا تغيير فيه، وهو أم الكتاب بالبيان القرءاني الواضح، وعليه فمدار فقه دلالته على إدراك معاني ما احتف به من كلمات وآيات وسياق داخلي وخارجي، أهم أسسه السياق القرءاني العام، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وسياق الأحداث والأجواء العامة للنزول، أما **المتشابه رغم نهله من نفس المعين، فإنه يحتفظ بخاصية التَّبَع للمحكم واستمداد تقريرِ مُرادِه منه**، وحالُ فهمه هو التغير المستمر، فهو حافز لولوج عملية التدبر والتفكر من أجل تفريد المعاني والحقائق. ويمكن القول إن **المحكم يطلب الإتقان في الفعل الإنساني، والمتشابه أشد طلبا لإحكام المعنى المراد منه، لتحرير صحيح المعتقد، وإرساء أسس العبادة**. وهذا ما يلمح له سبب نزول الآيات دليل البحث، فقد قصد النصارى من وفد نجران إثارة الفتنة بتشبيه أوصاف عيسى عليه السلام، بأوصاف الله سبحانه لا شريك له، إنكارا وجحودا لرسالة سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات والتسليم، فنزلت اثنان وثمانون آية من سورة آل عمران تدحض أقوالهم وتكذبها وتردها. ولازالت هذه الواقعة تلقي بظلالها على كثير من الخلافات عبر العصور إلى يوم الناس هذا في دائرة التدافع الإنساني، والصراع بين الخير والشر، وفي كل زمان تكتسي لبوسا خادعا، وهي

---

[106] – حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، ج 1 ص 17، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[107] – – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الطيبي ت: 743 هـ، ت: حسن بن أحمد العمري وصالح بن ناصر الناصر، ج16 ص 170، ط 2013، جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة الدراسات والبحوث، الإمارات العربية.

اليوم تتزيا بثوب النظريات والدراسات والتحليلات العلمية، المتحررة، بل المتنصلة بالأحرى من كل أساس وضابط شرعي، وتخفي في طياتها الرغبة في الفتنة والإضلال.

واستفاضت الحواشي في شرح المحكمات والمتشابهات وبيان آيات أخر لها علاقة وطيدة بها، فشكلت فرصة للكشف عن مستويات الإحكام في القرءان الكريم، وما يحمل كل مستوى من الدلالات تسند المعنى العام للإحكام وتقويه. وتقسيمات للمتشابه، انطلاقا من لفظه إلى معناه، وانتهاء بما يعرض له، وبدا أنه يستلزم تعلم علم الاستدلال ومزاولة الفكر وإعمال النظر، مشفوعا بالتخلق بأوصاف الراسخين في العلم.

واستعرضت الحواشي بعض ما أثاره هذان المفهومان من آراء لأصحاب المذاهب والعقائد، والملاحظ أنها لم تذكر خلافا في المفاهيم عندهم، بل ظهر أن **هناك توافقا كبيرا في بيان معنى الإحكام وتحديد مفهوم المحكم والمتشابه وبيان معنى المحكمات والمتشابهات، وبيان معنى التشابه، وكذلك تصنيف الآيات موضوعهما، لكن موطن الاختلاف في تحليل الخطاب، وترجيح ما هو مناسب لكل نوع، مع ملاحظة شيء من التكلف لتطويع النص المقدس للاختيارات المذهبية.**

لكن أعتقد أن ما يجب الوقوف عنده تأملا وتدبرا، في خضم هذا السجال، هو جملة (**ما تشابه منه**) في الآية الكريمة، فهي تحيل إلى إمكانية حدوث اشتباه كلمات آيات الكتاب من وجه أو وجوه متعددة، مع أمر خارج عن النص المقدس فيكون ذلك مادة لإثارة الفتنة.

فآيات الكتاب حتما ليس فيها ما يسبب زيغا، وليس فيها ما يضلل، فكتاب الله تعالى هو الهدى، وهو محكم كله ﴿لا يَاتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ و**إنما هو تشابه يلقى في القراءة من خارج الكتاب يثير الفتنة**. وهذا يستلزم من الدارسين أن يعيدوا النظر في كل ما قيل حول المتشابهات، كشفا للحقائق، وتنزيها لآيات الله تعالى من كل وصف لا يليق.

المصادر والمراجع:

- القرءان الكريم برواية ورش عن نافع.
- صحيح الإمام البخاري لأبي عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي، دار طوق النجاة، بيروت ط 1، 1422 هـ.
- الجامع الصحيح «صحيح مسلم» لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، ت: أحمد بن رفعت بن عثمان حلمي القره حصاري ومحمد عزت بن عثمان الزعفران بوليوي وأبو نعمة الله محمد شكري بن حسن الأنقروي، دار الطباعة العامرة، تركيا، 1334هـ.
- معجم الطبراني الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت 360هـ)، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط: 2.
- مسند الإمام أحمد، الإمام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ) ت: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1421 هـ - 2001 م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين، ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت 711هـ)، دار صادر، بيروت، ط: 3- 1414 هـ
- الأعلام قاموس تراجم، خير الدين الزركيلي، دار العلم للملايين بيروت لبنان، ط15 2002م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة (المتوفى: 1067هـ)، مكتبة المثنى – بغداد، 1941م.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني (816 هـ)، ت: إبراهيم الأبياري، ص دار الديان للتراث، 1403هـ، مصر العربية.
- مفردات ألفاظ القرءان، الراغب الأصفهاني، ت صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق سوريا، ط4، 1430هـ 2009م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشافعي البيضاوي (ت 685هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، العلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538 هـ)، ت الشيخ عادل احمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط 1 1418 هـ – 1998م، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية.
- تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي (ت 764هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ)، ط 1436هـ 2015م، مكتبة مدار الوطن للنشر، الرياض، السعودية.
- حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي (ت 685هـ)، محيي الدين بن مصطفى قوجوي شيخ زاده (ت 951 هـ)، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، وهو حاشية الطيبي على الكشاف، للإمام شرف الدين بن الحسين عبد الله الطيبي، (ت 743 هـ)، ط 1، 1434جائزة دبي الدولية للقرءان الكريم وحدة البحوث والدراسات، الإمارات العربية المتحدة.
- حاشية الجمل على الجلالين المسماة: بالفتوح الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، الشيخ سليمان الجمل، مطبعة التقدم العلمية، مصر.